آراء في الادب والعمران

للمرحوم الدكتور صرُّوف

وذكريات شخصية من قلم الامير شكيب ارسلان

٢

كان الدكتور صرُّوف للعلم خليلاً صافياً لا يرى به بديلاً ولا يرضى الاَّ بمجالسة ذلك الصديق الذي صافاهُ الدنيا وما فيها

انقطع للعلم ولكل ما يخص العلم ونظر الى الامور الاخرى كلها من خلال العلم

وبرغم هذا لم يكن يتعصب للعلم التعصب الذي يغلب العقل والعرف والعادة ويجهل مراعاة الزمان والمكان ولاسيما الذي يمس الاخلاق . بل كان كل ذلك عندهُ مسؤولاً عنهُ . وقد مرَّ بنا من قضية كتاب اناتول فرانس ما يضرب في هذا الباب عن مشربهِ اعراباً كافياً وبالاجمال كانت عندهُ المعارف والاخلاق توأمين متلازمين لا يرى هذه الاَّ بهذه

وكانت فيهِ سجية العلماء الحقيقيين من التواضع والوداعة والتحرج عن البتّ في الامور والجزم الذي يجزمهُ بعضهم كان الحقيقة اصيحت في جيبهِ وكأنهُ لو ارتفع القطاء لم يزدد يقيناً . كلاَّ . لم يكن من هذا النمط بل كان مشربهُ انهُ مهما كانت القاعدة العلمية نازلة منزلة الحقائق لا يتلقاها الانسان الاَّ مع شيء من التحفظ يبقى معهُ الباب مفتوحاً لنظريات جديدة . وكان كثير التأني والتروي قليل التسرُّع ابعد الناس عن التهور . هذا ما كنت الحظهُ من كتاباتهِ منذ عرفتهُ . ولا اقدر ان احكم كيف كان في عنفوان شبابهِ فإن المرء يطيب ويصفو من نفسهِ في الكهولة ما قد يكون عانياً متصفاً في ايام غلواء الشباب . الاَّ اني ارجح كون تلك الروح الظاهرة كانت من اصل فطرتها ونشأتها صافية رائقة رضية مطمئنة لا تحجب نظرها اقذاء الشهوات ولا تتحكم في احكامها سورة الاهواء ومما لا مرية فيهِ ان علو السن وازدياد الحنكة قد كسبا ذلك الصفاء الفطري اتماناً

وكان لا يحتقر رأي احد ولا يزدري ولا يهزأ ولا يقابل الآراء الضعيفة بالاعراض التام ولا يقول : هكذا تقرر وجف القلم . وانما يعرض كل ما يأتيهِ على المحك ويقول

هذا الذي عندنا وهذا الذي قالوهُ حتى اليوم ويأتي بالشواهد على ذلك . ثم لا يأنف أن يقول بانهُ قد يكون الحق خلاف ذلك ولكنهُ لا يقدر هو ان يعطي الا ما عندهُ وكثيراً ما كان يدعو المعترضين ان يُدلوا بحجتهم ويفيضوا ما عندهم ولو بما يخالف رأيهُ لانهُ لم يكن يهمهُ ان يفوز في الجدل ولا ان يقال انهُ هو صاحب الحقيقة بل كان يهمهُ ان تعرف هذه الحقيقة ايًّا كان صاحبها

***

ومرةً — وليس من عهد بعيد — أبديت واعدت معهُ بمراسلات خاصة فيما بيننا بموضوع العرب ومكانهم من العلم . فقلت لهُ ما معناهُ ان هناك نزعة جديدة في التحامل على العرب وتنقص شانهم واستصغار ما اتوا بهِ من مدنية وما انتلوهُ من عمران واكثر ما يستدلون على ذلك بالآراء العصرية واكثر ما يعتنون باظهار ضؤولة المدنية العربية بجانب المدنية الاوربية . وهي محاكمة غريبة جدًّا لان العرب المتمدنين والاوربيين المتمدنين لم يعيشوا في عصر واحد بل حضارة العرب ازدهرت قبل اليوم بنحو الف سنة والمعارف والاختراعات التي فاتتهم قد فاتت امماً مثلهم واجلَّ منهم كالرومان واليونان والصين فلا يعيب العرب ان يجهلوا منذ الف سنة ما عرفتهُ اوربة بعد الف سنة فالزمان كالانسان كما مرت عليهِ الايام ازداد خبرة ولا عجب ان يكون الزمان الشيخ اعلم من الزمان الشاب . ولعلهُ يأتي يومٌ بعد الف سنة مثلاً تصير فيهِ معارف العصر الحاضر في جانب معارف ذلك اليوم مسخرةً من المساخر . أفيكون ذلك سبباً لاحتقار المدنية الحاضرة واتهام الاوربيين بالقصور ؟

ان العرب كانوا في ايام دولتهم حملة العلم وناشري المدنية والمثل الاعلى في عصرهم ذاك وكانوا هم الواصلين بين الشرق والغرب ثم جاءت ادوار انحطوا فيها باسباب مختلفة كما انحطت امم غيرهم بعوامل متنوعة وكما انحطت رومة مثلاً . ونهض الغرب الاوربي من نحو ثلاثمائة او اربعمائة سنة وسبقهم وهذا لا ينكر كما ان العرب كانوا لعهدهم نهضوا وسبقوا امماً عظيمة كانت في اوج المدنية في ايامها كالرومان والفرس وهذا التقدم والتأخر مشهودان في تاريخ الامم وتلك الايام نداولها بين الناس . فلم نفهم معنى هذه الشرّة في غمط فضل العرب والاحنة على مدنية العرب والاجتهاد في اثبات ان العلم الفلاني لم يعلمهُ العرب وان العلم الآخر انما نقلوهُ نقلاً وما اشبه ذلك . فاية امة راقية لم تنقل عن

غيرها واية أمة عاقلة أنفت من استعارة الاشياء المفيدة من سواها وكيف كان الامر فالعلماء الاوربيون اجمعوا على ان هناك مدنية عربية زاهرة مزدهرة خاصة بالعرب موسومة بطابعهم كان لها المقام الاول في حقبة من الزمن

فاجابني الدكتور صروف بما يعترضهُ بعضهم على فضل العرب وما ينسبونهُ من الاعجاب بالمدنية العربية الى غلو المستشرقين المحبين للعرب وما يقال من ان العرب دخلوا على حضارات قديمة ضخمة فدمروها ومآثر جليلة فنسفوها . وقال لي ما معناهُ : اننا نشرنا ما عرفناهُ من فضل العرب ولكن لم نقدر ان نخوض في الفلسفة العربية التي قيل انهم برعوا فيها لاننا لا نعرفها فمن اولى منك بان تخوض عباب هذا الموضوع وتنشر في المقتطف ما تثبت بهِ فضل امتك وامتيازها على غيرها وتنقض آراء من يحاول تنقص العرب

وهكذا اراد الفقيد المترجم ان يستوري هذا الخاطر الصلد ويستمري هذا العارض الكزّ في هذا الموضوع الجلل حبًّا بتمحيصه وتجلية الحقيقة منهُ . ولقد كان لهُ احسن الله مآبه حسن ظن في هذا العاجز او كان حسن ظنه هذا من الباب الذي تقدم عنهُ وهو انهُ لم يكن يحتقر رأي أحد

ولقد جاوبتهُ على كتابه هذا الذي لم اجدهُ حتى هذه الساعة بين اوراقي المتلاطمة الامواج ومتى وجدتهُ لا ارى بأساً من نشره . ولست بتذكر كل فحوى جوابي لهُ لان الذين يكتبون آناء الليل واطراف النهار يستحيل عليهم ان يتذكروا كل ما تجري بهِ اقلامهم . واظن اني وعدت بتوفية هذا الموضوع حقه وشرعت باعداد الوثائق اللازمة لذلك ومن اهمّ ما لفتَ نظري من هذا البحث مقالة للدكتور محمد شرف منشورة في « جريدة السياسة » لخّص فيها ما قام بهِ العرب من جهة العلم العملي وما وفقوا اليهِ في العلوم الرياضية والطبيعية والكيمياء والطب واثبت بها ان عمدة العرب في العلم كانت التجربة

ولكن الاشغال والاسفار البعيدة والسياسة — قاتل الله السياسة — حالتني عن اتمام هذا العمل الذي كنت في الحقيقة لا اتوخى فيهِ الاّ اقناع الدكتور صروف نفسه بأن مقام العرب الاولين في العلم كان اجلّ مما يتوهم وان المستشرقين لم يحلوا العرب ما ليس لهم لا بل ان اكثر المستشرقين تقصوهم ولم يزيدوهم . نعم كنت حريصاً على ان

ازيد قيمة العرب في نظري وان كنت عارفاً انهُ كان ذا رأي عظيم فيهم وانهُ انما كان يريد ان يزداد قلبهُ اطمئناناً

والحقيقة ان للعرب دورين احدهما ما قبل الاسلام والثاني ما بعده

فدورهم قبل الاسلام تحدث عنهُ مآثرهم الزراعية في اليمن ومدائنهم العظيمة في جزيرة العرب والبيوت المنحوتة في الجبال والآثار الباهرة في بتراء وتدمر والسويداء وغيرها فهذه كلها مما صنعت ايدي العرب . وان قيل ان النبط هم الذين قاموا بكثير من ذلك جاوبنا : ومن هم النَّبَط ؟ ومن هم العالقة ؟ بل قلنا اكثر من ذلك : ومن هم الفينيقيون ؟ كل هذه الامم امم سامية خرجت من جزيرة العرب وكلها تركت مآثر لا يمحوها الزمان

واما دور العرب بعد الاسلام فلا الدولة الاموية في الشام ولا الدولة العباسية في بغداد ولا الدولة الفاطمية في مصر ولا الدولة الاموية الثانية في الاندلس كانت تحاب بتدمير او نسف عمران بل جميع هذه الدول كانت معمّرة مثمرة مؤسسة مؤثّلة لا يجد مؤرخ منصف فيها مجالاً لوصمةٍ من هذا القبيل . واما تحامل بعض الافرنج ممن لا تزال في قلوبهم نزعة صليبية او ممن يقصدون بذلك اغراضاً استعمارية سياسية في انكار اهمية مآثر هذه الدول في العمران والمدنية فلن يطمس على الحقيقة ولن يطمس الواقع الراهن وهو ان هذه الدول بلغت المكان المدني الاعلى في وقتها وكانت دول الافرنجة يومئذٍ بجانبها همجاً

ثم عدت على الامة العربية عوادٍ اخذت بها الى هاوية الانحطاط اهمها اثنتان : الاولى كائنة المغول الذين نسفوا عمران المشرق كلهِ واستأصلوا ملايين النسَم وانزلوا حضارة بلاد الاسلام عن درجتها العالية فلم تقم لها قائمة تحمَدُ منذ عصفت تلك الريح الناسفة العاتية . والثانية حروب الافرنج الصليبية في الشام ومصر والمغرب والاندلس مما استمر مئين من السنين ونزف دماء الدول العربية التي لم يبق لها وقت ولا سنان ولا رجال الا للدفاع عن نفسها

واظن اني ذكرت في جواب المرحوم هذين السببين وان كنت لا اقتصر عليهما بل اجد من فتور هم العرب وفشوّ الظلم وخلل الادارة في حكوماتهم وفساد اخلاق علمائهم الذين صاروا يفتون للامراء باهوائهم اسباباً اخرى

ولا انسى سبباً آخر لهُ التأثير الاكبر في انحطاط العرب وهو جمود الفقهاء ونفورهم من العلوم الطبيعية والرياضية ونظرهم في ذلك بدعاً في الدين وتمسكهم باسلوب من التعليم مخصوص لا يحيدون عنهُ

ولا اقول كما يظن بعضهم جهلاً ان العلوم الطبيعية والرياضية والطب والفلك والفلسفة كانت بالتمام مهملة في القرون الاخيرة في الازهر وجامع الزيتونة وجامع القرويين والاموي الخ لكني اقول انها كانت غير مرغوب فيها وكان عدد من يتلقاها نزراً بالقياس الى طلاب النحو والفقه وكان مقتصراً فيها على نظريات قديمة من القرون الوسطى اصبحت لا تساوق هذا العصر

ولقد كانت هذه النظريات بينها هي مرجع الاوربيين الى ما قبل هذا العصر بثلاثمائة سنة او اكثر ولكن هؤلاء بحثوا وتفحصوا وزادوا وجروا الى الامام ونحن جمدنا على ما كنا عليه

***

واعود الى كلامي وذكرياتي عن الدكتور صروف فاقول :

كتب إليَّ الدكتور صروف في تاريخ لا اقدر ان اعينهُ الآن ولكنني اظن انهُ منذ ثلاثين سنة يستمد رأي هذا العاجز في شيء يتعلق بالمقتطف وذلك انهُ قال لي : قد بلغ منا التعب مبلغهُ وأرى ان نفسح في المقتطف اكثر من ذي قبل للمواضيع الادبية والتاريخية والروايات . او ما هو بمعناهُ . فجاوبتهُ بأن لا يفعل . وقلت لهُ : أنت تعلم ان مزية المقتطف التي انفرد بها هو كونهُ مجلة علمية فنية لا يضاهيه في هذا الباب مجلة أخرى عربية فينبغي للمقتطف ان يحفظ هذا المركز الذي اختص بهِ وان لا يتحول مجلة ادبية وواثبة يضارعهُ في هذا الموضوع مجلات وجرائد كثيرة . فأما انكم تعبتم وان لا نفسكم عليكم حقاً وان الانسان اذا لم يوفر لنفسه نصيبها من الجمام لم يستطع ان يحسن الشغل كما يريد فعلاج ذلك ان تستكثروا من المساعدين والمؤازرين الذين يمكنهم ان يكتبوا تحت اشرافكم . ويظهر ان الاستاذ المرحوم رافهُ هذا الرأي وعول عليه . واذا عثرت على المراسلات التي بيني وبينهُ في ذلك التاريخ لا أتأخر عن نشر ما يناسب أخذهُ منها . ولم ازل اتذكر ايضاً انهُ كتب إليَّ مرة يسألني عن ما هية المخطوطات التي وجدت في حجرة كانت مغلقة من الجامع الاموي بدمشق لعلَّ

فيها ما يستحق الاعتبار من الوثائق التاريخية او غيرها فكتبت يومئذ الى دمشق واتذكر ان الجواب الذي جاءني منها لايفيد شيئاً فيه طائل من جهة تلك الاوراق المحفوظة في تلك الخزانة

***

هذا ما عنَّ لي ان اذكرهُ هذه المرة عن المرحوم الدكتور صروف . ولن يكون هذا المقال آخر كلامي عنهُ لان الذي انقطع لخدمة العلم خمسين الى ستين سنة متوالية لاينبغي للذين شهدوا معاركه المتواصلة في ساحة العلم وللذين استفادوا من ثمرات جنانهِ واستضاءوا بمصابيح آرائهِ ان يجتزئوا من الاشادة بذكره بمجرد تأبين واحد او ترجمة حال تكون هي ختام القول عنهُ . بل الدكتور صروف ممن ينبغي ان يبقى ذكره ملهج الالسن ما دامت العربية وما عمر ناد للعلم في الشرق . وجدير بهِ ان تضاف الى اسمه الاندية الادبية وان تنسب اليهِ المدارس والمحافل وان يطلق اسمهُ على الشوارع في مدائن الشرق الكبرى لان اصحاب الاعمال الخالدة يجب لهم التخليد بالالسن والاقلام حتى يعلم المجتهد اذا اجتهد ان الانسان لايذهب عملهُ سدًى وأنهُ إن عاش حياة واحدة بالجسم فهو يعيش الدهر كله بالروح والذكرى . كثير من المفكرين ومن ادباء الوقت يعرفون عن الدكتور صروف اكثر مما أعرف وربما كانت لهم خلطة بهِ لم تكن لي . لاننا كنا متباعدين في الاقطار فهؤلاء يقدرون ان يحكموا عمَّا إذا كنت في هذا التأبين زدتهُ عن حقهُ او بخستهُ حقهُ او ادَّيتهُ اليهِ كما هو غير منقوص . وعلى كل حال كيف كانت احكامهم في المقابلة بين وصفي هذا وبين كنهه فانا على يقين بأن الدكتور الفقيد هو من الافذاذ النابغين في الدهر النادرين في الفضل واللامعين في آفاق الشرق لمعان الانجم الزُّهر والذين لمثلهم يقال البيت الآتي :

هيهات أن يأتي الزمان بمثلهِ ان الزمان بمثلهِ لبخيل

جزاهُ الله افضل الجزاء على جهاده الطويل في خدمة اشرف شيء ترقَّت بهِ المدنية وهو العلم وافضل مزية تحقق بها الانسان وهي الانسانية

لوزان شكيب ارسلان

التمثال الذي صنعه هودن لابنته بيع بنسمة واربعين ألف جنيه
مقتطف اكتوبر ١٩٢٨ — امام الصفحة ١٤٣

الفتاة « اليس » التي كتب لها كتاب « في بلاد العجائب »
وقد بيعت مخطوطتهُ بأربعة عشر ألف جنيه